

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة عن الكتاب

ورثت الدولة الإسلامية من امبراطورية الرومان القديمة معظم أقاليم البحر الأبيض المتوسط، كمصر وشمال أفريقيا والأندلس وصقلية والشام والعراق الأعلى.

واستخدمت وسائل الحكم ونظم الإدارة الرومانية بهذه الأقاليم المفتوحة، لتدعيم سلطانها الجديد هناك، ومن تلك الوسائل الطرق الرومانية المعبدة، ونظام البريد الذى ينم اسمه عن أصله اللاتينى فيريدى (Veredii) ومعناه خيل البريد، والدينار وهو معرب اللفظ ديناريوس (Denarius).

على أن دولة المسلمين قد فاقت امبراطورية الرومان فى فتوحها وأملاكها، وقد استلزم ذلك فضلاً عما كان هنالك من قبل كثيراً من طرق البريد ومصانعه وموظفيه، مما توجد تفاصيله فى الكتب العربية التى ألفت لارشاد العاملين فى تلك الناحية من الإدارة الإسلامية، وهذه الكتب هى أول ما كتب المسلمون فى وصف البلاد التى خضعت لحكمهم.

على أن اهتمام المسلمين بجغرافية فتوحهم وما يجاورها من البلاد، وتأليفهم وترجمتهم للكتب فى الجغرافية الوصفية، لم ينشأ عن ضرورات الإدارة والبريد وضبط الضرائب فحسب، بل كان لتأدية فريضة الحج، والتجارة فى البر والبحر، والاشتغال بالجغرافيا كعلم لأجل ذاته، وحب الراحلة لتدوين المشاهدات، أثر ملموس فى عدد المؤلفات التى وصلت إلينا من تراث المسلمين.

ومن هذه كتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، الذى كتبه مؤلفه حوالى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وتداولته أيدى القراء مخطوطاً فى الشرق والغرب، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت (William Wright) الانجليزى سنة ١٨٥٢ م، وراجعته بعده دى خويه (De Goeje) الهولندى سنة ١٩٠٧ م، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم: Travels of Ibn Jubayr. E. W. (Gibb, Mem. Series. V. 1907).

كان ابن جببر عربياً أندلسياً، واسمه أبو الحسين محمد بن جببر الكناني، وقد ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره. ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم سره، فاستوطن من وقتئذ غرناطة.

ويقال إن الأمير أبا سعيد استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه، فمد يده إليه بقدر من نبيذ، فاعتذر ابن جببر وأبى واسترجع، فأقسم عليه الأمير يميناً مغلظة ليشر به منها سبعة، فشربها صاغراً، ثم ردها عليه أبو سعيد سبع أقداح من الدنانير.

لذلك أزمع ابن جببر الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته، وأقام في سفره سنتين، ودون مشاهداته وملاحظاته في يوميات هي المعروفة برحلة ابن جببر، فجاءت مدونة وافية لجميع ما شاهده، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التي مر بها، وقاموساً لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية، وثبتاً بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري، وهذا فضلاً عن أنها كانت - على ما يظهر لي - كتاب دعاية لدولة الموحدين، تعنى ابن جببر فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقاً إلى مصر والحجاز.

ترك ابن جببر غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسان، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣ م)، إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغرس)، وعبر البحر من هناك إلى سبتة (Cutae)، فألقى بها سفينة الجنوية (Genoese) مقلعة إلى الاسكندرية، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير).

وسارت السفينة عبر الزقاق (Denia)، (Gibraltar) مساحلة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية، ثم اتجهت غرباً فمرت بجزائر ميورقة ومنورقة وسردانية، وطرأ عليها قبالة بر سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أتت، ثم استطاع رأسها أن يصل بها إلى الشاطئ السرداني، فجدد المسافرون هناك الماء وامتاروا.

ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية، فوصلت إليها على متن ربح عاتية، وأرست على شاطئها عند موضع لم يذكره ابن جببر. ثم فارقت بر صقلية، واتجهت غرباً حتى حاذت بر جزيرة اقريطش (Crete) تقديرًا لا عيائًا، واستقر بها النوى أخيراً عند الإسكندرية يوم ٢٩ ذي القعدة (٢٦ مارس)، أي أنها استغرقت في سفرها من جزيرة الطريف إلى الاسكندرية ثلاثين يوماً.

كان أول ما شاهده ابن جبير بئغر الإسكندرية أن طلع أمناء السلطان - وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبي - إلى المركب، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحداً واحداً، لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول إلى البر.

وقد آلم ابن جبير أن يطلب إلى المسافرين - وهم حجاج مسلمون، لم يستصحبوا معهم سوى زاد طريقهم - أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليه الحول.

ثم طاف ابن جبير بالمدينة، فزار المنار، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه، وشاهد بقايا العمائر البطليموسية والرومانية، وذكر المدرسة والمراستان المخصصين للغرباء، كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة في موضع واحد، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض.

وقد شاهد ابن جبير وهو بالإسكندرية دخول جماعة كثيرة من أسرى الحملة الصليبية الجزئية التي كان أرناط (Renaut de Chatillon) صاحب الكرك، وقد أنفذها ذلك العام في البحر الأحمر لغزو بلاد العرب والاستيلاء على مكة والمدينة، ليصيب المسلمين في مقتلهم، وصلاح الدين بعيد في شمال الشام، وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قاربت سفنها ساحل الحجاز، وكان أولئك الذين شاهدتهم ابن جبير من الأسرى جزءاً مما وقع في أيدي المسلمين من جنودها.

انما يلاحظ أن ابن جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضاً ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنوبيين على يد عمال صلاح الدين بالإسكندرية، وهذا نقص يؤسف له، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلمه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين في الموانئ الإسلامية من جديد، ولأوجب عليهم القصد في العبارة المتواترة في كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين في الموانئ الإسلامية كان من أكبر الأسباب التي أثارت أوروبا للحروب الصليبية.

ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ أبريل) إلى القاهرة، حيث نزل بفندق أبي الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو بن العاص.

وأقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار في أثنائها مسجد الحسين، حيث رأى في جدار الحائط الذي يستقبله الداخل حجراً شديداً السواد، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الحديثة الصقل.

ثم زار القرافة، ومسجد الشافعي، والمدرسة الناصرية التي بناها بجواره السلطان صلاح الدين، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة، «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها».

ولقد لقي ابن جبير شيخ هذه المدرسة وهو نجم الدين الحبوشاني، ولم يلتق من رجال مصر سواه، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين، أو أخيه العادل، أو بهاء الدين قراقوش، أو القاضي الفاضل، ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية في مصر، على أنه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته في بلاد الشرق الأدنى، وقد صورته في عبارة أنيقة دقيقة فقال:

«أنه لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه، وسمعنا أحد فقهاء... المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه... ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه: أحداها أن الحلم من سجايه، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه، أما أنا فلأن أخطيء في العقو أحب إلى من أن أصيب في العقوبة، وقال أيضاً، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار، وجرى ذكر من سلف من أكارم العرب وأجوادهم: والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضاً مما أراقه من حر ماء وجهه في استمناحه إياي...، وحضره أحد مماليكه المتميزين (كذا) لديه بالحنو والاثرة مستعداً على جمال ذكر أنه باعه جملاً معيباً.. فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة..، وإنما انا عبد الشرع..، فالحق يقضى لك أو عليك...».

هذه صورة لصلاح الدين الذي تم على يده تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والشام، وكان له الفضل في إعادة السنية إليهما. وكان صلاح الدين قد أبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبنى العباس منذ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر سنة ١١٧١ م)، وقد لاحظ ابن جبير ذلك في كثير من الأغتباط.

وترك في يومياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة، إذ «يأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسية، وصفة لباسه برودة سوداء عليه طيلسان شرب أسود، وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام، وعمامة سوداء، متقلداً سيفاً، وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين، كأنها إيذان

بالانصات، وفي توسطه أخرى، وفي انتهاء صعوده الثالثة، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا، ويقف بين رايتين سوداوين فيها تجزيع بياض، قد ركزنا في أعلى المنبر».

وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم «يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين، وبين يديه ساعياً أحد القومة، وفي يده عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه مرس من الأديم المفتول رقيق طويل، في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفثاً فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه، كأنه ايزال في نفثها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقة».

ومما شاهده ابن جبير بالقاهرة القلعة، ولما يكتمل بناؤها، كما عاين سور القاهرة والخندق المحدث به، والقناطر التي ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الإسكندرية الصحراوى، وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش.

وقد بين ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من القلعة سكناً وحصناً، وإن يمد في السور حتى ينتظم مصر والقاهرة، وأن يجعل من القناطر سداً يدفع به عادية الطامعين في مصر من أهل المغرب وبقايا الفاطميين، ولاحظ أيضاً أن جميع المسخرين لتلك المنشآت كان من أسرى الفرنج.

وهذا كله صحيح متواتر في المراجع المعاصرة، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه. غير أنه قرر وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر، وشرح رسم أولهما، وقال أن الثانى على مثل ذلك الرسم بعينه. على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستانا ما على نسق ما ابتناه مخدومه نور الدين بن زنكى بدمشق، ما عدا أنه أمر بأن تعمل خزانة الأشربة التي كانت للقصر الكبير الفاطمى مارستانا للمرضى.

ولعل ابن جبير رأى فعلا مارستان أحمد بن طولون بين القاهرة ومصر، فظنه أيضاً من مستحدثات صلاح الدين، وكان جامع ابن طولون قد تحول في ذلك العهد إلى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحللون فيه، أى يعقدون حلقات الدرس به.

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة، ووصفها وصفاً يدل على أنها كانت فى أيام صلاح الدين مثلما هى عليه الآن تقريباً، وسمى هرمى خوفو وخفرع باسم «الكبيرين»

وهرم منقرع باسم «الصغير»، وذكر أنه كان دون هذا «الصغير» خمسة صغار متصلة، فكأنه رأى الهرم الرابع، كما رأى تمثل أبي الهول، وسماه باسم «أبي الأهوال».

وقد زار ابن جببر عدداً ذلك بلدة الجيزة، وجزيرة الروضة، ومقياس النيل، وجامع عمرو بالقسطاط، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بها الصليبيون فى أواخر أيام الدولة الفاطمية.

ثم سافر ابن جببر من القاهرة فى النيل إلى قوص، فاجتاز على مدن الصعيد دون أن ينزل باحداها، ما عدداً المدن التى توقفت المركب عندها بأمر السلطات المحلية، كمنية ابن خصيب وأسيوط وأخميم، حيث أحصى المسافرين واستدفعوا الزكاة عن ما لديهم من المال كما حدث بالإسكندرية. وقد وصف ابن جببر هذه المطالب المتكررة بأنها سرقة مقنعة، و «ادخال للأيدى إلى أواسط التجار».

ووصل ابن جببر إلى قوص يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ٥٧٩ هـ (١٩ مايو سنة ١١٨٣ م)، فوجدها حافلة الأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحبشة.

ثم فصل منها إلى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور، وهو طريق التجارة الدولية فى الفلفل وأنواع البهار التى انبت على مكاسبها عظمة الدولتين الأيوبية والملوكية، كما انبنت عظمة الامبراطورية البريطانية على تجارة الشاي وتوابل الهند فى القرن الثامن عشر.

ولا مبالغة فى وصف ابن جببر لضخامة تلك التجارة، حين قال أنه رام فى هذه الطريق «احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن، ولا سيما القوافل العيذايية المتحملة لسلع الهند، الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب.. من.. أحمال الفلفل، فلقد خيل الينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة».

وقد امتدح ابن جببر أحوال الأمن العام فى هذا الطريق، حين قال: «ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل أما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المار عليها من أطوار الناس».

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها إلى جدة، فاكترى مكاناً في إحدى السفن المخصصة لنقل الحجاج بين الثغرين، واسمها الجلاب والواحدة جلبة.

وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفاً فريداً في مؤلفات المسلمين، فقال بأنها «ملفقة البناء، لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه إلى أن يتخبط، ويفتلون منه أمراً يخيطنون بها المراكب، ويخللون بها بدس من عيدان النخل، فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة، سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب، لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها».

على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب، حتى يجلس بعضهم على بعض كأنهم فى أقفاص الدجاج، فيستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى سفرة واحدة، ولا يبال بما يصنع البحر بها بعد ذلك، وكان أصحاب تلك السفن يقولون علينا بالألواح (ألواح السفينة) وعلى الحجاج بالأرواح. والواقع أن هذه السفن لم تخلق فى نفوس الحجاج شيئاً من الطمأنينة، وكفى قول ابن جبير فى هذا الصدد أنه وأصحابه فى هذه الرحلة ماتوا مراراً وحيوا مراراً.

ثم فصل ابن جبير من جدة يوم ١١ ربيع الآخر ٥٧٩ هـ (٢ أغسطس سنة ١١٨٣ م) قاصداً مكة، فوصلها بعد ثلاثة أيام، ودخلها من باب العمرة، وطاف بالكعبة طواف القدوم. ثم طفق يتعرف على أماكن الزيارة، وقد ترك وصفاً دقيقاً ضافياً للمسجد الحرام ومكة نفسها فى سبعين صفحة من كتابه، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها فى أواخر القرن السادس الهجرى.

ويتخلل هذا الوصف ملاحظات لابن جبير ذات أهمية فى دراسة التاريخ الإسلامى: منها أن أهل الحجاز عامة كانوا يعتبرون الحجاج - وليس موسم الحج - من أعظم غلاتهم التى يستغلونها، ينتهبونها انتهاباً بأنواع المكوس، وأن مكثراً الحسنى أمير مكة فى ذلك الوقت، لم يشذ عن بقية أهل الحجاز فى جشعهم وترويعهم للحجاج، وأن ما أحدثه السلطان صلاح الدين من إبطال هذه المكوس، وتعويضه أمير مكة بمال وطعام يرسله إليه كل سنة، عدداً اقطاعات عينها له بصعيد مصر، قد خفف كثيراً من متاعب الحجاج.

ومن ملاحظات ابن جبير أيضاً أن أشراف مكة كانوا على مذهب الزيدية، يزيدون في الأذان «حى على خير العمل»، ولا يجتمعون مع الناس فى الصلاة، انما يؤمهم إمام خاص. ومن ملاحظاته أيضاً عادة التهئة بالهلال الجديد عند أهل مكة، يتصافحون ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم فى الأعياد، وكان الأمير مكثراً يكر إلى الحرم فى أول كل شهر بحاشيته وقواده وحرابته لاستقبال التهئة بالشهر الجديد، باعتباره السلطان الحاضر فى مكة، على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية، فيدعو خطيب الجمعة للخليفة، ثم للأمير مكة، ثم للسلطان صلاح الدين ولول عهده وأخيه العادل أبى بكر.

وقد لاحظ ابن جبير فى صلوات الجمعة بمكة أنه عندما يأتى الخطيب على ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان، اعترافاً بفضل على العالم الإسلامى عامة، ولا عجب أن يغرد أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهالعة، فقد هدم الدولة الفاطمية ودعوتها من مصر بغير حرب، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل، وهذا فضلاً عما بلغه من التوفيق فى الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهده.

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مقدم الملك سيف الإسلام طغتكين أخى صلاح الدين من مصر، وكان فى طريقه إلى اليمن التى دانت للأيوبيين، وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفاً دقيقاً، حيث مشى الأمير مكثراً إلى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع، والناس فى موسم الحج من جميع الأقطار على جانبي الطريق، وفى ذلك دلالة على أن هيبة الدولة الأيوبية كانت تفوق كل هيبة فى عصرها.

إلى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريباً، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه فى وصف معالم مكة قد كتب عن رؤية وتحقيق.

ثم أهل شوال، وهو فاتحة أشهر الحج، فحج ابن جبير وترك فى مدونته وصفاً دقيقاً لجميع المناسك والمراسم فى عصره، وذكر فى خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذاك العام من الرجال والنساء.

ثم رحل إلى المدينة، وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوى، كما أكمل كتابه بوصف ذلك المسجد الشريف، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع إلى وطنه.

غير أنه لم يرجع من حيث أتى، بل وافق الركب الشامل لحاج العراق وخراسان وكردستان والشام، فسار إلى العراق فى ٨ المحرم سنة ٥٨٠هـ (٢١ أبريل سنة

١١٨٤م) ، واتبع طريقاً طويلاً إلى الأندلس ، فأضاف إلى مؤلفه قيمة جديدة بما دونه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثغور البحر الأبيض المتوسط في عصره ، كما سيلي .

مر ابن جبير في طريقه إلى العراق بالقادسية وكانت إبان الفتوح الإسلامية الأولى ثغراً من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبي وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم . وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات .

ثم نزل على الكوفة ، وهي المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكراً دائماً للمسلمين في فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الإسلامية في خلافة علي ، وفي أوائل أيام الخلافة العباسية أيضاً ، وألقاها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، الغامر منها أكثر من العامر .

ثم رحل إلى الحلة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد قد ربطت إلى خشب مثبتة في كلا الشطين ، وقد اجتاز ابن جبير بقرب الحلة جسراً ثانياً على نسيهر يسمى النيل ، وهو أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير إلى المدائن ، عاصمة الدولة الفارسية قبل الإسلام ، فوجدها خراباً . ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يوماً ، وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ، كما شاهد بجهاتها كثيراً من الخراب مما جعله يقرر في يومياته أن بغداد (وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ..) قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهير اسمها) .

وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالإضافة إلى ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي مثلاً أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول على يد هولاكو وجنوده ، يرجع إليه المؤرخ ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها .

وفضلاً عن ذلك ففي ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة في أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس ، منها وصف الخليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير مرتين وهو يتطلع من منظرتة بالقصر الخلفي ، فإذا به (في فناء من سنه) أشقر

اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرءاء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً وثوباً أبيض شبه القباء ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية .. متعمداً بذلك رى الأتراك) .

ومن ملاحظات ابن جببير فى بغداد أيضاً جميع العباسيين كانوا فى الواقع معتقلين فى دورهم اعتقلاً جميلاً ، لا يخرجون ولا يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسه وزير فى ذلك العصر ، إنما له قيم يعرف بالصاحب الأستادار ، يقوم على جميع شئون الدور الخليفية ، ويدعى له أثر الدعاء للخليفة .

هذا ولابن جببير ملاحظة عامة فى أهل بغداد ، وهى أنهم كانوا - كأهل روما فى أواخر أيام الدولة الرومانية - (لا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزددون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء .. قد تصور كل منهم قى معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكromون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم) .

ترك ابن جببير بغداد إلى الموصل يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ هـ (٢٨ مايو سنة ١١٨٤م) صحبة من بقى من الحجاج من أهل الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمر على الركب سلجوقه خاتون زوج نور الدين صاحب آمد ، وخاتون أم عز الدين صاحب الموصل . فمر بسامرا ، وهى سر من رأى عاصمة العباسيين أيام المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبرة من رأى ، قد استولى عليها الخراب إلا بعض جهات قليلة .

ثم وصل تكريت ، وهو البلد الذى ولد فيه السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئة بنى أيوب قبل أن يتصلوا بعماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود بالشام .

ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ، وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ، ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدنيوية المربية ، ولعله لم يعجبه بروز نساء البلد راكبات لاستقبال الأميرة وهى تدخل المدينة فى عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما رآه بالموصل نفسها من حصون ومدارس وجوامع ومارستانات .

ثم رحل ابن جببير إلى نصيبين ، ومنها إلى داراً ، فماردين ، فدنيسر ، فرأى عين التسى سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون بقربها .

ولابن جبير ملاحظة لطيفة بضد أمراء تلك البلاد ، إذا شبيههم بسلوك الطوائف بالأندلس ، (كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة ، وصفات لذى التحصيل غير طائلة .. ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق) ، إلا صلاح الدين الأيوبي الذى أفرد ابن جبير فى كل مناسبة بما هو قمين به من التبجيل ، فقال إن هذا (اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح) .

ثم وصل ابن جبير إلى حران ، فألقاها اسماً على مسمى من شدة ما لاقاه من حرها ، ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشتق اسمه من هوائه ، ثم رحل منها إلى سروج التى نسب الحريرى إليها أبا زيد السروجى بطل مقاماته .

وعبر ابن جبير الفرات عند سروج إلى قلعة نجم ، التى عرفت قبل باسم جسر منبج ، وصار بذلك فى مملكة صلاح الدين الأيوبي ، على أنه لم يشأ أن يفوت تلك الفرصى بدون أن يقرر أن حدود النفوذ الأيوبي كانت أبعد مدى من ذلك الحد الجغرافى ، وأن سيادة صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة فى جميع البلاد التى مر بها من الموصل إلى سروج .

ثم قصد ابن جبير إلى حلب عن طريق الرحبة ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بضد حلب أنها سميت بذلك الاسم لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب عندها غنماً له ، ويتصدق بلبنها ، على أنها كانت حسبما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية من منشئات الحثيثيين ، واسمها فى لغتهم حلاب ، ومنها اسم حلب الحالى .

ثم رحل ابن جبير من حلب إلى دمشق ، فمر على قنشرين وتل تاجر وباقدين ، وتمنى والمعرة وجبل لبنان ، وحماة والرسن وحمص ، وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن مارستان ، وأن جميع الخانات التى أوى إليها فى طريقه كانت كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأمناً .

ووصف ابن جبير الجامع الأموى بدمشق وصفاً بديعاً وأنى على تاريخه تفصيلاً ، كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به ، وسماها المنجاة كتسمية أهل الأندلس فى ذلك العصر للساعات الدقاقة التى اشتهرت بها بلادهم .

على أن عبارات ابن جبير بضد ما شاهده بدمشق من المباني والعمائر تشتمل على ملاحظات له ذات أهمية كبرى فى معرفة الحال الدينية والاقتصادية بالشام والشرق

الأدنى فى ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة والزيدية والامامية والاسماعيلية والنصيرية والغرابية وغيرها . وفى ذلك دليل على أن الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب ريحهما تماما على يد صلاح الدين .

على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة من الطوائف السنية التى نشأت لمناهضة الشيعة فى ذلك العصر ، وهى طائفة النبوية ، وكانت تدين بالفتوة ، وتكفى الإشارة هنا إلى الفتوة وسراويلها ، فهى موضوع يحتاج حتى الآن لبحث طويل ، بداهة الأستاذ أحمد أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر عليه ليوضحه الناس .

أما ما جاء فى ابن جبير هنا بشأن الحال الاقتصادية بالشام ، فهو أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين فى أنحاء البلاد ، وقد دلل على ذلك بما شاهده من نشاط وتبادل بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتئذ بحرب أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : (ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا فى هذا الوقت .. من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك .. فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القبائل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمانة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعمهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد) .

هذا وأنسى أحيل من يطلب المزيد فى هذا الموضوع إلى مذكرات أسامة بن منقذ الشيزرى ، المعروفة باسم كتاب الاعتبار ، وإلى قصة الطلمس التى ربت حديثاً ليرى أن الحروب الصليبية لم تفسد كثيراً من العلاقات الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيراً أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق إلى عكا بعد إقامة شهرين وزيادة ، ليركب البحر منها إلى بلاده ، ولا يكاد القارئ يأتى على الجملة الأولى من يوميات ابن جبير بصدد عكا ، حتى يأتى على عبارة فيها التفات ، وهى أن أسفار السفن من عكا فى الخريف - وهو أحسن أوقات السفر حين ذاك - كانت تعرف عند أهل الشام باسم (الصليبية) لتصلب أشرعة السفن موافقة للريح فى تلك الأسفار ، فهل استمد اسم الحملات والحروب الصليبية - التى كانت على أشدها إبان هذا الوقت - من ذلك الاسم العربى ، فجاءت تسمية دقيقة ورمية من غير رام .

هذا وقد سجل ابن جبير فى ثنانيا مذكراته بصدد الطريق من دمشق إلى عكا ، وهو فى أرض الصليبيين أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس إضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد ، وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكى فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية .

وأهمية ذلك كله أن هنا مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون إلى نداء نور الدين ، ولتقرير ما خفى على بعض المؤلفين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم الموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت فى الواقع بالأندلس قبل أن تمتد إلى الشام .

ووصل ابن جبير عكا فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ (١٨ سبتمبر سنة ١١٨٤م) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبهها ابن جبير فى العظم بالقسطنطينية التى لم يرها .

ثم علم أن مركباً فرنجياً على وشك الإبحار من مدينة صور إلى بجاية بتونس ، فذهب إلى صور يريد السفر ، غير أنه استصغر المركب ، فرجع إلى عكا بحرّاً ، واكترى هناك مكاناً فى سفينة جنوية ، قصدها مسينة بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر سنة ١١٨٤م) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التى أنشأتها المدن الإيطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى .

وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم اليلغريين ، وهو تعريب حرفى تقريباً للكلمة اللاتينية (Peregrini) ، أو الإيطالية (Pellagrini) ، ومعناها

الحاج فى هاتين اللغتين ، كما قرر ابن جببر أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتخذ من السفينة مكاناً مستقلاً ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج إليه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والجبن .

وقد ذكر ابن جببر أيضاً بصد هذا السفر أن عدداً من حجاج المسلمين والنصارى توفى على ظهر السفينة ، فقتلوا فى البحر ، وورثهم رانس المركب ، إذ كانت العادة أنه لا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه إذا مات فى البحر .

استغرقت تلك السفينة فى سفرها إلى مسينة شهرين ، وكان أقصاه فى العادة خمسة عشر يوماً ، فأرست على الشاطئ الصقلى يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠هـ (٩ ديسمبر ١١٨٤م) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبراً فى قيادة السفينة وابدال ما تكسر من شرعها وقلاعها فى عرض البحر ، مما وصفه ابن جببر فى دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه فى هذا الصدوثيقة فى شرح فنون البحر فى العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبى إيطاليا تابعة وقتئذ للنورمان (الشماليين) الذين أتوا فى أوائل القرن الحادى عشر من بلاد نورمانديا إلى جنوبى إيطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة فى حروب الدويلات اللباردية والولايات البيزنطية هناك ، وقد برزت الحوادث من بينهم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذى تملك على تلك البلاد وأسس منها مملكة واحدة ، ثم امتدت أطماعه إلى صقلية الإسلامية ، فانتزعها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عاماً .

ويعتبر النورمان فى التاريخ من طلائع النشاط الذى حرك أوربا إلى دفع المسلمين عن فتوحهم المظلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعد استيلائهم على صقلية فى الحروب الصليبية أيضاً ، وهدموا الدولتين الزيرية والحمادية بأفريقية ، واستولوا على المهديّة سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية فى صقلية ، بحكم وضعها الجغرافى والزمنى ، هى فى الواقع أوج نماذج الحكم والإدارة والثقافة والمدنية فى التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى ، إذ التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والإسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجاً لم يتم مثله فى غيرها من البلاد .

ومن شواهد ذلك فى كتاب ابن جبير أن النورمان استخدموا ما وجدوه من أنظمة المسلمين فى حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعماء فى ترويض الناس على الحكم النورمانى ، واستعملوا كثيراً من المسلمين على الوظائف ولا سيما فى البلاد الملكى ، وسلخوا أبناءهم فى الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم يسئوا أن يقرنوا ذلك بشيء من الضغط المالى والتضييق على الحرية الشخصية لحمل من ضعف إيمانه على دخول المسيحية .

وقد جاء ما كتبه ابن جبير فى يومياته بصد صقلية مصدقاً لكل ذلك ، وكان ملكها غليام الثانى (William II) حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بلازمة (Palermo) ، وهذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلغ اعتماده على المسلمين : (وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجاييب ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، حتى أن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته والمترسمون بخاصته .

(ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلما كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيى بن فيتان الطراز ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأخراً) .

على أنه لا يجب أن يؤدى ذلك الوصف الخاص ببلاط الملك إلى الاعتقاد بأن عامة المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالاً من اخوانهم فى البلاد المسيحية الأخرى ، فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايا . والأسواق والرباع الإسلامية التى شاهدها ابن جبير بمدن صقلية ، قد ضرب النورمان على المسلمين أتاوة تدفع مرتين فى العام الواحد ، وحالوا بينهم وبين تملك الأرض ، بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه ، وكذلك نسوة القصر من المسلمات ، فإذا حان وقت الصلاة وهم فى خدمة الملك ، خرجوا أفذاذاً من حضرته ليقضوا صلاتهم ، وهذا فضلاً عن أنه لم يكن للمسلمين جمعة ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة مسينة التي أرسى عندها أولاً ، ثم شفلودي وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة وأطرابنش (Atrepanes) . ثم أقلع من ميناء المدينة الأخيرة يوم الاثنين ٢١ ذى الحجة سنة ٥٨٠هـ (٢٥ مارس سنة ١١٨٤م) على ظهر سفينة جنوية إلى الأندلس ، فوصل قرطاجنة يوم الخميس ١٥ المحرم سنة ٥٨١هـ ، وسافر منها إلى مرسية ثم لبرالة ثم لورقة ثم المنصورة ثم قنالش (Caniles) حتى وصل إلى منزله بغرناطة ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٤م) .

لم يقل ابن جبير بعد رحلته هذه بالأندلس طويلاً ، بل رحل إلى الشرق ثانية ، ويقال بصدد ذلك نقلاً عن كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، أنه لما شاع الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج ثانية ، فسافر من غرناطة في ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ (٢٧ أبريل سنة ١١٨٩م) .

ولست أعلم من تفصيلات تلك الرحلة سوى القصيدة التي نظمها ابن جبير ليشكو بها إلى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه بالحجاج في ميناء الإسكندرية ، وهي قصيدة طويلة في ثلاثة وخمسين بيتاً ، وقد أشار فيها ابن جبير إلى الفتح الصلاحي لبيت المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه إلى غرناطة في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧هـ (٥ سبتمبر سنة ١١٩١م) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة إلى مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، وانقطع إلى اسماع الحديث والتصوف وتروية الشعر . على أنه لم يبق بالمغرب طويلاً تلك المرة أيضاً ، بل رحل إلى الشرق مرة ثالثة ٦١٤هـ (١٢١٧م) . وسبب تلك الرحلة - حسبما ورد في كتاب الإحاطة أيضاً - أن زوجته عاتكة بنت الوزير الوقشي ماتت ، وكان كلفه بها جماً ، فعظم وجده عليها ، فرحل إلى مكة وجاور بها ، ثم انتقل عنها إلى بيت المقدس ، وتحول بعد ذلك إلى الإسكندرية ، فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي بها في شهر شعبان من السنة المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .

المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة

ترجمة المؤلف

قال ابن الخطيب في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة »^(١) عن صاحب هذا العمل :

هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى الواصل إلى الأندلس .

أوليته

دخل جده عبد السلام بن جبير الأندلسى ، فى طاعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، فى محرم سنة ١٢٣هـ ، وكان نزوله بكورة شذونة ، وهو من ولد ضمرة بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ، بلنسى الأصل ، ثم غرناطى الاستيطان ، شرق وغرب ، وعاد إلى غرناطة .

حاله

كان أديباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، سنياً فاضلاً ، نزيه الهممة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة . كتب بسبته عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح كثيرة ، ثم نزع عن ذلك ، وتوجه إلى المشرق ، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته . ونظمه فائق ، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة ، وذكره شهير ، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار . رحمه الله .

رحلته

قال من عنى بخيره : رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها . فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس ، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ ، صحبة أبى جعفر بن حسان ، ثم عاد إلى وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ، ولقى بها

(١) قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ المرحوم محمد عبد الله عنان ويقع فى ٤ أجزاء . نشر فى دار الخانجي - القاهرة ١٩٧٨ م .

أعلاماً . يأتي التعريف بهم في مشيخته ، وصنف الرحلة المشهورة ، وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع . وهو كتاب مؤنس ممتع ، مثير سواكن النفوس إلى تلك المعالم .

ولما شاع الخبر المبهج بفتح (بيت) المقدس ، على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية . سحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥هـ ، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٥٨٧هـ ، وسكن غرناطة ، ثم مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، منقطعاً إلى اسماع الحديث ، والتصوف ، وتروية ما عنده . وفضله بديع وورعه يتحقق ، وأعماله الصالحة تذكر .

ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة ، أم المجد ، بنت الوزير أبى جعفر الوقشى - وكان كلفه بها جما ، فعظم وجده عليها - فوصل مكة ، وجاور بها طويلاً ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر والإسكندرية ، فأقام يحدث ، ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه .

شيوخه

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس ، وابن الأصيلى ، وأخذ العربية عن أبى الحجاج بن يسعون ، وبسبته عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السبتي .

وأجاز له أبو الوليد بن سبكة ، وأبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الغساني التونسي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمى السبتي ، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشى الميانشى نزيل مكة ، وأبو جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى ، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن إبراهيم محمد البغدادي ، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندى رئيس الشافعية بأصبهان . وبيغداد العالم الواعظ المستبحر ، نادرة الفلك ، أبو الفرج - وكانه أبا الفضائل ابن الجوزى - وحضر بعض مجالسه الوعظية ، فشهد رجلاً ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد . ودمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السلمى الجوارى ، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون ، وأبو الطاهر بركات الخشوعى وسمع

عليه ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني ، من أئمة الكتاب ، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر وسمع عليه ، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعي ، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي ، وأجازوا له ، وبحرَّان المتكلم الصوفي العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز ، وابنه الحاذي حذوه .

من أخذ وروى عنه

قال ابن عبد الملك : أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب ، وابن الواعظ وأبو تمام ابن إسماعيل ، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي ، وأبو الحسن الشاري ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وأبو زكريا ، وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبي الغمر ، وأبو عبد الله بن حسين بن مجبر ، وأبو العباس بن عبد المؤمن البنانى ، وأبو محمد بن الحسن اللوابى بن تامتيت ، وابن محمد المورورى ، وأبو عمرو بن سالم ، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي .

وممن روى عنه بالإسكندرية : رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ، وبمصر رشيد الدين بن عطار ، وفخر القضاة ابن الجباب ، وابنه جمال القضاة .

مؤلفاته وتصانيفه

منها نظمه ، قال ابن عبد الملك : وقفت منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس ، وجزء سماه (نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح) فى مراثى زوجه أم المجد ، وجزء سماه (نظم الجمان فى التشكى من اخوان الزمان) ، وله ترسيل بديع ، وحكم مستجادة ، وكتاب رحلته . وكان أبو الحسن الشاري يقول : انها ليست من تصانيفه ، وإنما قيد معانى ما تضمنته ، فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه . والله أعلم .

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة ، على ساكنها من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليم :

أقول وأنت بالليل نارا
ولا فما بال أفق الدجى
ونحن من الليل فى حندس
وهذا نسيم شذا المسك قد
وكانت رواحنا تشتكى
وكننا شكونا عناء السرى
أظن النفوس قد استشعرت
بشائر صبح السرى آذنت
جرى ذكر طيبة ما بيننا
حنينا إلى أحمد المصطفى
ولاح لنا أحد مشرقا
فمن أجل ذلك ظل الدجى
ومن ذلك الترب طار النسيم
ومن طرب الركب حث الخطى
ولما حللنا فناء الرسول
وحين دنونا لفرض السلام
فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا
ولا نظهر الوجد إلا اكتاما
سوى أننا لم نطق أعينا
وقفن بروضه دار السلام
ولولا مهابتة فى النفوس
قضينا بزورته حننا
إليك إليك نبي الهدى
وفارقت أهلى ولا منة
وكيف نمن على من به
دعاني إليك هوى كامن
فناديت لبيك داعى الهدى
ووطنت نفسى بحكم الهوى

لعل سراج الهدى قد أنارا
كأن سنا البرق فيه استطارا
فما باله قد تجلى نهـارا
أعير أم المسك منه استعارا
وجاهها فقد سبقتنا ابتدارا
فعدنا نبارى سراع المهارا
بلوغ هوى تخذثه شعارا
بأن الحبيب تدانى مزارا
فلا قلب فى الركب إلا وطارا
وشوقا يهيج الضلوع استعارا
بنور من الشهداء استنارا
يحل عقود النجوم انتشارا
نشرا ، وعم الجهات انتشارا
إليهما ونادى البدار البدارا
نزلنا بأكرم خلق جوارا
قصرنا الخطى ولزمننا الوقارا
ولا نرفع الطرف إلا انكسارا
ولا نلفظ القول إلا سـرارا
بأدمعها غلبتنا انفجارا
نعيد السلام عليها مرارا
لثمننا الثرى والتزمننا الجدارا
وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
ركبت البحار وجبت القفارا
ورب كلام يجر اعتذارا
نؤمل للسيئات اغتفارا
أثار من الشوق ما قد أثارا
وما كنت عنك أطيع اصطبارا
على وقلت رضيت اختيارا

أخوض الدجى وأروض السـ
ولو كنت لا أستطيع السبيل
وأجدر من نال منك الرضى
عسى لحظة منك لى فى غد
فما ضل من بمسراك اهتدى

رى ولا أطمع النوم إلا غرارا
لطرت ولو لم أصادف مطارا
محب ثراك على البعد ثارا
تمهد لى فى الجنان القرارا
ولا ذل من بذراك استجارا

وفى غبطة من من الله عليه بحج بيته ، وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم ،
يقول :

هنيئسا لمن حج بيت الهدى
وان السعادة مضمونة
وفى مثل ذلك يقول :

وحط عن النفس أوزارها
لمن حج طيبة أو زارها

إذا بلغ المرء أرض الحجاز
وإن زار قبر نبي الهدى
وقال فى تفضيل المشرق :

فقد نال أفضل ما أم له
فقد أكمل الله ما أمه

لا يستوى شرق البلاد وغربها
انظر ترى الشمس عند طلوعها
وانظر لها عند الغروب كهينة
وكفى بيوم طلوعها من غربها
وقال فى الوصايا :

الشرق حاز الفضل باستحقاق
زموا يعجب بهجة الاشراق
صفراء تعقب ظلمة الآفاق
أن تؤذن الدنيا بعزم فراق

عليك بكتمان المصائب واصطبر
كفاك يشكوى الناس إذ ذاك أنها
وقال :

عليها فما أبقي الزمان شقيقا
تسر عدوا أو تسوء صديقا

ومصانع المعروف فلتة غافل
كالنفس فى شهواتها ان لم تكن

ان لم تضعها فى محل عاقل
وقفا لها عادت بضر عاجل

نشرہ

من حكمه قوله : إن شرف الإنسان فبشرف وإحسان ، وإن فاق فبفضل وأرفاق ، ينبغي أن يحفظ الإنسان لسانه كما يحفظ الجفن إنسانه ، فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال ، كم كست فلتات الألسنة الحداد من ورائها ملابس الحداد ، نحن في زمان لا يحظى فيه بنفاق إلا من عامل بنفاق .

شغل الناس عن الطريق بزخارف الأعراض ، فمخّوا الصدور عنها والأعراض . آثروا دنيا هي أضغاث أحلام ، وكم هفت في حبها من أحلام ، أظالوا فيها آمالهم ، وقصروا أعمالهم ، ما بالهم لم يتفرغوا لغيرها ! ما لهم في غير ميدانها استباق ، ولا لسوى هداها اشتياق .

تالله لو كشف الأسرار ، لما كان هذا الأسرار ، لسهرت العيون ، وتفجرت شئونها الجفون ، فلو أن عين بصيرة من سنتها هابة ، لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابة ، ولكن استولى العمى على البصائر ، ولا يعلم الإنسان ما إليه صائر . أسأل الله هداية سبيله ، ورحمة تورّد نسيم الفردوس وسلسبيله ، إنه الحنّان المُنّان ، لا رب سواه .

ومنها : فلتات الهبات أشبه شيء بفلتات الشهوات : منها نافع لا يُعقِبُ ندماً ، ومنها ضار يبقى في النفس ألماً . فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء ، وربما أثرت عنده اعتداء ، وضرر الشهوات إن لم تواقف ابتداء ، فتصير لمُتبعها داء ، مثلها كمثل المسكر يلتد صاحبه بحلاوة جنّاه ، فإذا صحا يعرف ما قد جنّاه ، وعكس هذه القضية هي الحالة المرضية .

مولده : ببلنسية سنة ٥٣٩هـ ، وقيل بشاطبة سنة ٥٤٠هـ .

وفاته : توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤هـ.

ويضيف المقریزی كلامه عن ابن جبیر فی كتابه «المقفی» ^(١) فيقول:

هو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير
ابن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير،
الداخل إلى الأندلس، من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أبو الحسين بن
أبي جعفر الكناني الأندلسي البانسي.

(١) قام بتحقيق الجزء الأول منه الدكتور أحمد أمين وقدم له الدكتور طه حسين.

مولده: ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٤٠هـ ببلنسية، وقيل في مولده غير ذلك. وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القراءات، وعنى بالآداب فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة، ونال بها دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها، وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي، عن القاضي عياض، وتوجه إلى الحج، ودخل بغداد والشام، وسمع بهما.

وقدم مصر، فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى، والحافظ أبو الحسين يحيى ابن علي القرشي، وتوفي في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ. ثم يتحدث المقرئ رحمه الله في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»^(١) في الباب الخامس عن المؤلف فيقول:

ومنهم - يعنى من الراحلين إلى المشرق من الأندلس - «أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير» الكنانى، صاحب الرحلة، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أندلسى شاطبى بلنسى، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٤٠هـ ببلنسية، وقيل في مولده غير ذلك.

وسمع من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القراءات، وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريض والكتابة. ومن شعره قوله - وقد دخل إلى بغداد، فاقتطع غصناً نضيراً من أحد بساتينها، فذوى في يده:

لا تغترب عن وطن
أما ترى الغصن إذا
واذكر تصاريف النوى
ما فارق الأصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب صدر الخجندى:

يا من حواه الدين فى عصره
ماذا يرى سيدنا المرتضى
صدرا يحل العلم فيه فؤاد
فى زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغى منه سوى أحرف
ترسمها أنمله مثل ما نمق
زهرا أشراف زخر يفاد
زهرا الروض كف العهداد

(١) قام بتحقيق الكتاب محمد محيى الدين ثم بعده الدكتور إحسان عباس.

ففى رقعة كالصبح أهدى لها
اجازة يورثنيها العلى
يد المعالى مسك ليل المداد
جائزة تبقى وتفنى البلاد
والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندى :

لك الله من خاطب خلتي
أجزت له ما أجازوه لى
ومن قابس يجتدى سقط زندى
وما حدثوه وما صح عندى
وكاتب هذى السطور التى
تراهن عبد اللطيف الخجندى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية، رحل معه فأدياً الفريضة، وسمعا بدمشق عن أبى الطاهر الخشوعى، وأجاز لهما أبو سعيد بن أبى عصفرون، وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما، ودخلا بغداد، وتجولاً مدة، ثم قفلاً جميعاً إلى المغرب، فسمع منهما به بعض ما كان عندهما.

وكان أبو جعفر هذا متحققاً بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم، وكتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن، وجده لأمه القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية. وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ٥٩٨هـ أو ٥٩٩هـ ولم يبلغ الخمسين فى سنه، رحمه الله.

رجع إلى ابن جبير: قال لسان الدين فى حقه: أنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب، وله الرحلة المشهورة، واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين ابن أيوب له قصيدتان إحداها أولها:

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر

ومنها قوله :

رفعت معارم مكس الحجاز
وآمنت أكناف تلك البلاد
فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالمغرب من شاكر

والأخرى منهما فى الشكوى بابن شكر، الذى كان آخذ المكس من الناس فى الحجاز:

وما نال الحجاز بكم صلاحاً
ومن شعره:

أخلاء هذا الزمان الخئون
قضيت التعجب من بابهم
وقوله:

غريب تذكر أوطانه
يحل عرى صبره بالأسى
وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام، زاده الله شرفاً:

بدت لي أعلام بيت الهدى
فأحرمت شوقاً له بالهوى
وقوله يخاطب من أهدى له موزاً:

يا مهدي الموز تبقي
وزايه عن قريب
وميمه لك فاء
لن يعاديك تاء

وقال رحمه الله:

قد ظهرت في عصرنا فرقة
لا تقتدى في الدين إلا بما
ظهورها شؤم على العصر
سن ابن سينا وأبو نصر

وقال:

يا وحشة الإسلام من فرقة
قد نبذت دين الهدى خلفها
شاغلة أنفسها بالسف
وادعت الحكمة والفلسف

وقال:

ضلت بأفعالها الشنيعة
ليست ترى فاعلاً حكيماً
طائفة عن هدى الشريعة
بفعل شيئاً سوى الطبيعة

وكان انفصاله، رحمه الله، من غرناطة، بقصد الرحلة الشرقية، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ هـ، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام من السنة. فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية

ثلاثين يوماً، ونزل البر الاسكندراني في الحادي والثلاثين، وحج رحمه الله، وتجول في البلاد، ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها.

وكان رحمه الله - كما قال ابن الرقيق - من أعلام العلماء العارفين بالله. كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاء لأن يكتب عنه كتاباً، وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال. يا سيدي ما شربنها قط، فقال: والله لتشرين منها سبعة.

فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملاً له السيد الكأس من دنانير سبع مرات، وصب ذلك في حجره، فحمله إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان، لا خروج له عنها، أنه يحج في تلك السنة، فأسعفه، وباع ملكاً له تزود به، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر.

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة:

طول اغتراب وبرد شوق	لا صبر والله لى عليه
إليك أشكو الذى ألقى	يا خير من يشتكى إليه
ولى بغرناطة حبيب	قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو بارتحاض	يظهر لى بعض ما لديه
فلوترى طل نرجسية	ينهمل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق	من دمعته فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدى الناس.

ولما وصل بغداد تذكر بلده:

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد إلى الأوطان كل غريب

(انتهى)

وقال فى رحلته فى حق دمشق: جنة المشرق، ومطلع حسنة لمؤنق المشرق.. إلخ.

قال العلامة ابن جابر الوادى آشى، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق، ما نصه: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا ولم تكن له بها إقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من

الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المنوعات، ولا أوقات سرورها المهنئات، وقد اختصر من قال ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين. انتهى.

رجع إلى كلام ابن جبير، فتقول: ثم ذكر في وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الإسلام حسنا وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنسيق وتزيين.. إلخ. ثم مد النفس في وصف الجامع، وما به من العجائب.

ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه: وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة، ولها هيئة طاق كبير، إلخ.

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى دمشق الأندلس، لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار، وقد أطل عليها جبل الثلج، وفي ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة:

يا دمشق الغرب هات سيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجرى وهى تنصب إليها

قال ابن سعيد: أشار ابن جبير إلى أن غرناطة في مكان مشرف، غوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار، ودمشق في وهدة تنصب إليها الأنهار، وقد قال الله تعالى في وصف الجنة ﴿بَجَرِيٍّ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١)، انتهى.

رجع إلى ابن جبير رحمه الله، ومن شعره قوله:

اياك والشهوة فى ملبس والبس من الأثواب أسماها
تواضع الإنسان فى نفسه أشرف للنفس وأسمى لها

وقال:

تنزه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس، فهو بالحر أشبه
إذا أنت جاوبت السفية مشاتما فمن يلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال:

(١) سورة التوبة الآيات ٧٢، ٨٩، ١٠٠.

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب إلى حكم الأسى ومدامع
أيا رب أهلى فى يدىك وديعة وما عدمت صونا ليدىك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج، المعروف بمدغليس، صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور:

لأبى الحسين مكارم لو أنها عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت عن بعض نعمها عظام الأبحر
وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها:

يا وفود الله فزتم بالنا فهنيئاً لكم أهلاً منى
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برّح الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هتّنا
ومنها:

فيناديه على شحط النوى من لنا يوماً فقلت ملنا
سربنا يا حادى الركب عسى أن نلاقى يوم جمع سربنا
ما دعا داعى النوى لما دعا غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق إذا لاح وقل جمع الله بجمع شملنا
علنا نلقى خبالاً منكم بلذيد الذكر وهنا علّنا
لو حنا الدهر علينا لقضى باجتماع بكم بالنحنى
لاح برق موهنا من نحوكم فلعمري ما هتّا العيش هتّا
أنتم الأحباب نشكو بعدكم هل شكوتم بُعدنا من بُعدنا
وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها:

لعل بشير الرضى والقبول يعمل بالوصل قلب الخليل
وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة، على صاحبها الصلاة وأتم السلام،
وهى ثلاثة وثلاثون بيتاً من الغر، أولها:

أقول وآنست بالليل نارا (الأبيات الثلاثة)

وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنياً عريضة، ثم رفضها وزهد فيها.

وقال صاحب الملتبس فى حقه : الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير، ممن لقيته وجالسته كثيراً، ورويت عنه، وأصله من شاطبة، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها، ذكره ابن اليسع فى تاريخه. ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه، وتولع بغرناطة فسكن بها.

قال : ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بأشبيلية :

أبا عمران قد خلقت قلبى لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء فيها هو قد تنمر للقطيعه
وآمنت أكناف تلك البلاد

قال : وكان من أهل المروءات، عاشقاً فى قضاء الحوائج، والسعى فى حقوق الاخوان، والمبادرة لا يناس الغرباء، وفى ذلك يقول :

يحسب الناس بأنى متعب فى الشفاعات وتكليف الورى
والذى يتعبهم من ذاك لى راحة فى غيرها لن أفكرا
وبودى لو أقضى العمر فى خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال : ومن أبدع ما أنشده، رحمه الله، أول رحلته :

طال شوقى إلى بقاع ثلاث لا تشد الرحال إلا إليها
ان للنفس فى سماء الأمانى طائرا لا يحوم إلا عليها
قص منه الجناح فهو مهيبض كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال :

إذا بلغ العبد أرض الحجاز.. البيتين.

وعاد، رحمه الله، إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التى حل فيها دمشق والموصل وبغداد، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج، فعطب فى خليج صقلية الضيق، وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١هـ، ثم أعاد المسير إلى المشرق يعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم.

ومن شعره أيضاً :

لى صديق خسرت فيه ودادى حين صارت سلامتى منه ربها
حسن القول سئى الفعل كالجز ارسمى وأتبع القول ذبحا

وحدث، رحمه الله، بكتاب «الشفاء» عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي، عن القاضي عياض. ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى، وأبو الحسين يحيى ابن على القرشى.

وتوفى ابن جبير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤هـ، والدعاء عند قبره مستجاب، قاله ابن الرقيق رحمه الله. وقال ابن الرقيق: فى السنة بعدها.

وقال أبو الربيع بن سالم: أنشدنى أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي - ويعرف بابن الخطيب - لأبى الحسين بن جبير، وقال وهو مما كتب به إلى من الديار المصرية فى رحلته الأخيرة، لما بلغه ولايتى قضاء سبتة، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوقشى فدفنها بها:

بسبتة لى سكن فى الثرى وخل كريم إليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوى فزرت بها الحى والميتا

وأنشد ابن جبير، رحمه الله، لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة، أو فى طريقها قوله:

لى نحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء والقيس
إلى آخرها. ومن شعره قوله:

يا خيرَ مولى دعاه عبد أعمل فى الباطل اجتهاده
هب لى ما قد علمت منى يا عالم الغيب والشهادة

وقال رحمه الله:

وانى لأوثر من أصطفى وأغضى على زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب لأعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله:

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه فى العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخبطها أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورا بصحبته وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه وقد درى أنه للغير يجمعه

تراه يشفق من تضييع درهمه
وأسوأ الناس تدييرا لعاقبة

وقال :

صبرت على غدر الزمان وجعده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد
وكم صاحب عاشرته وألفته
وكم غرّني تحسين طنى به فلم
وأغرب من عنقاء فى الدهر مغرب
بنفسك صادم كل أمر تريده
وعزّمك جرّد عند كل مهمة
وشاهدت فى الأسفار كل عجيبة
فكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها
وما يحرم الإنسان رزقا لعجزه
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة

وقال :

الناس مثل ظروف حشوها صبر
تغر ذائقها حتى إذا كشفت

وقال :

تغير إخوان هذا الزمان
وكانوا قديما على صحة
قضيت التعجب من أمرهم

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور، ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله :

شكلت أخلاء هذا الزمان
قضيت التعجب من شأنهم

وليس يشفق من دين يضيعه
من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وشاب لى السّم الذعاف بشهده
صديقا جميل الغيب فى حال بعده
فما دام لى يوما على حسن عهده
يضىء لى على طول اقتداحى لزنده
أخو ثقة يسقيك صافى وده
فليس مضاء السيف إلا بعده
فما نافع مكث الحسام بغمده
فلم أر من قد نال جدّا بجده
فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
كما لا ينال الرزق يوما بكده
جرت بقضاء لا سبيل لرده

وفوق أفواهاها شىء من العسل
له تبين ما تحويه من دخل

وكل صديق عراه الخلل
فقد داخلتهم حروف العلل
فصرت أطالع باب البذل

فعندى مما جنّوه خلل
فصرت أطالع باب البذل
انتهى.

ولابن جبير رحمه الله تعالى:

من الله فاسأل كل أمر تريده
ولا تتواضع المولاة فإنهم
واياك أن ترضى بتقبييل راحة

وهو نحو قول القائل:

أيها المستطيل بالبغي أقصر
وتذكر قول الاله تعالى
ربما طأطأ الزمان الرؤوسا
إن قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندثة من قرى مصر:

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة
فقلت لخلي في النوى جُذْ بمدمع
بأجواز مصر والأحبة قد بانوا
فليس لنا إلا المدامع قربان

وقال ابن جبير:

قد أحدث الناس أمورا فلا
فما جماع الخير إلا الذي
تعمل بها انى امرؤ ناصح
كان عليه السلف الصالح

وقال:

رب إن لم تؤتني سعة
لا أحب اللبث في زمن
فهم كسر لنجبر
فاطو عنى فضلة العُمر
حاجتى فيه إلى البشر
ما هم جبر لنكسر

ولما وصل ابن جبير، رحمه الله، مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ، أنشد قصيدته
التي أولها:

بلغت المنى وحللت الحرم
فأهلا بمكة أهلا بها
فعاد شبابك بعد الهرم
وشكرا لمن شكره يلتزم

وهي طويلة، وسيأتى بعضها.

وقال رحمه الله عند تحركه للرحلة الحجازية:

أقول وقد دعا للخير داع
حرام أن يلدأ لي اغتماض
حننت له حنين المستهام
ولم أرحل إلى البيت الحرام

ولا طافت بى الآمال إن لسم
ولا طابت حياة لى إذا لسم
وأهديه السلام وأقتضيه

وقال:

هنيئاً لمن حج بيت الهدى.. (البيتين)
ولنختم ترجمته بقوله:

أحب النبي المصطفى وابن عمه
هُم أهل بيت أذهب الرجس عنهم
موالاتهم فرض على كل مسلم
وما أنا للصحب الكرام بمبغض
هُم جاهدوا فى الله حقَّ جهاده
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم

وقوله فى آخر الميمية:

نبى شفاعته عصمة
عسى أن تجاب لنا دعوة
ويرعى لزواره فى غد
عليه السلام وطوبى لمن
أخى كم نتابع أهواءنا
رويدك جرت فعج واقتصد
وتب قبل عض بنان الأسى

ومنها:

وقل رب هب رحمة فى غد
جرى فى ميادين عصيانه
فيارب صفحات عما جنى

أطف ما بين زمزم والمقام
أزر فى طَيِّبة خير الأنام
رضى يدنى إلى دار السلام

عليا وسبطيه وفاطمة الزهرا
وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا
وحبهم أسنى الذخائر للأخرى
فإنى أرى البغضاء فى حقهم كفر
وهم نصروا دين الهدى بالطبى نصرا
لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

فيوم التنادى به يعتصم
لديه فنكفى بهما ما أهسم
ذماما فما زال يرعى الذمم
ألم بتربتته فاستلم
ونخبط عشواءها فى الظلم
أمامك نهج الطريق الأعم
ومن قبل قرعك سن الندم

لعبد بسيمى العصاة اتسم
مسيئاً ودان بكفر النعم
ويارب عفوك عما اجترم

وقال المقرئ، رحمة الله عليه، في الباب السابع من كتابه ما نصه: ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس، ما ذكره صاحب «الملتص» في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين بن جبير صاحب الرحلة، وقد قدمنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقاً في قضاء الحوائج، والسعى في حقوق الإخوان، وأنشدنا هنالك قوله «يحسب الناس بأني متعب».. إلخ.

وقد ذكر ذلك كله صاحب «الملتص»، ثم قال (أعنى صاحب الملتص): ومن أغرب ما يحكى أنى كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس، فجعلته (يعنى ابن جبين) الواسطة حتى تيسر ذلك، فلم يوفق الله ما بينى وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما، ولكن سعت جهدى فى غرضك، وها أنا أسعى أيضاً فى افتراقكما اذ هو من غرضك. وخرج فى الحين، ففصل القضية، ولم أر فى وجهه أولاً ولا أخيراً عنواناً لامتنان ولا تصعيب. ثم إنه طرق بابى، ففتحت له، ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية، فقال: يا ابن أخى أعلم أنى كنت السبب فى هذه القضية، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك، فبالله إلا ما سررتنى بقبوله.

فقلت له: أنا ما أستحيى منك فى هذا الأمر، والله أن أخذت هذا المال لأتلقنه فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب، ولا يحل لك أن تمكننى به بعد أن شرحت لك أمرى.

فتبسم وقال: لقد احتلت فى الخروج عن المنة بحيلة، وانصرف بماله. انتهى.

ثم قال صاحب الملتص: وتذاكرنا يوماً معه حالة الزاهد أبى عمران المارتلى، فقال: صحبته مدة فما رأيت مثله، وأنشدنى شعرين ما نسيتهما، ولا أنساها ما استطعت، فالأول قوله:

إلى كم أقول فلا أفعـل	وكم ذا أحـوم ولا أنزل
وأزجر عينى فلا ترعوى	وأنصح نفسى فلا تقبل
وكم ذا تعلل لى ويحها	بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أومل طول البقا	وأغفل والموت لا يغفل
وفى كل يوم ينادى بنا	منادى الرحيل ألا فارحـلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا	وسبع أتت بعدها تعجل

كأن بي وشيكا إلى مصرعى يساق بنعشى ولا أمهل
فياليت شعري بعد السؤال وطول المقام ، لما أنقسل

والثاني قوله :

اسمع أخى نصيحتى والنصح من محض الديانة
لا تقمرين إلى الشهام دة والوساطة والأمانه
تسلم من أن تعزى لزو ر أو فضول أو خيانه

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته فى الوساطة ، فقال : ما ساعدتنى رقة وجهى
على ذلك . انتهى .

وفى كتاب «رحلة العبدى» ما صورته : قال : وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضاً ، قال :
أنشدنى أبو عمرو بن الشقر ، قال . أنشدنى الفقيه الزاهد ، المنقطع إلى الله بمهجته ،
أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى بالإسكندرية لنفسه :

تأن فى الأمر لا تكن عجلاً فمن تأنى أصاب أو كادا
وكن بحبل الله الاله معتصماً تامن به بعى كل من كادا
فمن رجاه فمال بغيره عبدٌ مسيء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له يلقي خطوباً به وأنكادا

وينحوه له :

صن العقل عن لحظة فى هوى فإن البصيرة طوع البصر
وغض جفونك عن عفة فإن زناء العيون النظر

وأنشدنى أيضاً بمثله :

أمسا فسى الدهر معتبر ففيه الصفو والكـدو
فسلنى عن تقلبه فعند جهينة الخسـبر
صحبناه إلى أجل تراقبه ونحتـذر
فياعجباً لمن تحلل ولا يدري متى السفر

وقال العبدى أيضاً ، بعد وصفه الإسكندرية وعجائبها : ومن الأمر المستغرب والحال
الذى أفصح عن قلة دينهم (يعنى أهل الإسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم

من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال.

وقد رأيت من ذلك، يوم ورودنا عليهم، ما اشتد له عجبى، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى. وذلك لما وصل إليها الركب، جاءت شزيمة من الحرس - لا حرس الله مهجتهم الخسية، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة - فمدوا فى الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء، وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان، ثم استخلفوهم وراء ذلك كله.

وما رأيت هذه العادة الذميمة، والشيمة اللثيمة، فى بلد من البلاد. ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبا، ولا أقل حياء ومروءة، ولا أكثر إعراضا عن الله سبحانه، وجفاء لأهل دينه، من أهل هذا البلد. نعوذ بالله من الخذلان، فلو شاء لاعتدل المائل، وانتبه الوسنان.

وكننت إذ رأيت فعل المذكورين، ظننت أن ذلك أمر أحدثوه، حتى حدثنى نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبى الحسن يحيى بن الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز بن حباسة الإسكندرى، بمدرسة جده المذكور، حكاية اقتضت أن لهم فى هذه القضايح سلفا غير صالح.

وذلك أنه حدثنى إملاء من كتابه، قال: حدثنى الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد السبتي الحميرى، بثغر الإسكندرية سنة ٦٦٢هـ، قال: حدثنى الشيخ الإمام المحدث أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، الكنانى الأندلسى، سنة ٦١١هـ: أنه ورد إلى الإسكندرية، فى ركب عظيم عن المغاربة، يرسم الحج، فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش، والبحث عما بأيديهم، ففتش الرجال والنساء، وهتكت حرمة الحرم، ولم يكن فيهم إبقاء على أحد.

قال: فلما جاءتنى النوبة - وكانت معى حرم - ذكرتهم بالله ووعظتهم، فلم يعرجوا على قولى، ولا التفتوا إلى كلامى، وفتشونى كما فتشوا غيرى. فاستخرت الله تعالى، ونظمت هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومذكرا له بالله فى حقوق المسلمين، ومادحا له، فقلت:

أطلت على أفقك الزاهر	سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدى	تمد إلى سيفك الباتر

وعما قليل يحل الردى
وخصب الورى يوم يسقى
فكم لك من فتكة فيهم
كسرت صليبهم عنوة
وغيسرت آثارهم كلها
وأضيت جدك فى غزوهم
فأدبىر ملكهم بالشآم
جنودك بالرعب منصوره
فكلهم غارق هالك
ثأرت لدين الهدى فى العدى
وقمت بنصر اله الورى
وتسهر جفئك فى حق من
فتحت المقدس من أرضه
وجئت إلى قدسه المرتضى
وأعليت فيه منار الهدى
لكم زخر الله هذى الفتوح
وخصك من بعد ما زرتبه
محبتكم ألقيت فى النفوس
فكم لهم عند ذكر الملوك
رفعت معارم أرض الحجاز
(وآمنت أكناف تلك البلاد
(وسحب أياديك فياضة
فكم لك بالشرق من حامد
وكم بالدعاء لكم كل عام
وكم بقيت حبسة فى الظلوم
يعنت حجاج بيت الإله
ويكشف عما بأيديهم
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا

بكيدهم الناكث الغادر
الثرى سحائب من دمها الهامر
حكمت فتكة الأسد الخسادر
فلله درك من كاسبر
فليس لها الدهر من جابر
فتعسا لجدهم العاشر
وولى كأمسهم الدابىر
فناجز متى شئت أو صابر
بتيسار عسكرك الزاخر
فأأسرك الله من ثائر
فمباك بالملك الناصر
سيرضيك فى جفئك الساهر
فعادت إلى وصفها الطاهر
فخلصته من يد الكافر
وأحييت من رسمه الدائر
من الزمن الأول الغابر
بها لاصطناعك فى الآخر
بذكر لكم فى الورى طائر
بمثلك من مثل سائر
باتعامك الشامل الغامر
فهان السبيل على العابر
على وارد وعلى صادر
وكم لك فى الغرب من شاكر
بمكة من معلن جاهر
وتلك الذخيرة فى الذاخر
ويسطو بهم سطوة الجائر
وناهيك من موقف صاغر
كأنهم فى يد الآخر

وعقبي اليمين على الفاجر
فليس لها عنه من سائر
على الملك القادر القاهر
بتلك المشاهد من غائر
فيأذلة الحاضر الزاجر
إلى الملك الناصر الظافر
لقد تعست صفقة الخاسر
ويبدى النصيحة في الظاهر
يقبّح أحوثة الذاكِر
سواك وبالعرف من أمر
فما لك في الناس من عاذر
رداء فحمارك من ناشر
وتلك المآثر للآثر
وحق الوفاء على الناذر
وما أبتغي صلة الشاعر
وبئس البضاعة للتاجر
فناهيك من لقب شاهر
فقد قيل لا حكم للناذر
تعز، فتغلب بالخاطر
فقد فاز بالشرف الباهر
فتلك الكرامة للزائر
ويكفيك لحظات الناظر
بما حاز من ذلك العاطر

ويلزمهم حلفا باطلا
وإن عرضت بينهم حرمة
أليس يخاف غدا عرضه
وليس على حرّم المسلمين
ولا حاضر نافع زجره
ألا ناصح مبلّغ نصحه
ظلوم تضمن مال الزكاة
يسر الخيانة في باطن
فأوقع به حادث إنه
فما للمناكر من زاجر
وحاشاك إن لم تُزل رسمها
ورفعك أمثالها موسع
وآثرك العز تبغى بها
نذرت النصيحة في حقكم
وحبك أنطقني بالقريض
ولا كان فيما مضى مكسبي
إذا الشعر صار شعار الفتى
وإن كان نظمى له ناذرا
ولكنها خطرات الهوى
وأما وقد زار تلك العلى
وإن كان منك قبول له
ويكفيك سمعك من سامع
ويزهى على الروض غيب الحيا

قلت: هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه الحكاية، وقد وقعت في كتابه مشهورة،
لم يذكر فيه إلا ما أثبتته، وبالله التوفيق.

وأنشدني أبو عبد الله أيضاً، عن أبي العباس المذكور، عن ابن جبير، قصيدة نظمها
ارتجالاً حين تراءت له مدينة رسول الله ﷺ، وهي هذه:
أقول وآنست.. الأبيات.

وقال على بن ظافر في «بدائع البداية»: أنبأني المسكى: نزلت من القرافة لوداع الأجل أبي الحسين بن جبير، فقال لي: كنت على المجيء إليك، فقللت: وهمة سيدي هي التي آتت بي، فسألني عن القرافة، فقللت: هي موضع يصلح للخير والشر، من طلب شيئاً وجده، فقال: خذ هذه الحكاية، كنت متفرجاً في مكان وبت به، ثم أقبلت منه بكرة، فلقيني تلميذ لي فقال:

من أين أقبلت يا من لانظير له ومن هو الشمس والدنيا له فلك؟

فأجيبته مسرعاً:

من موضع تعجب النساء خلوته وفيه ستر على الفتاك أن فتكوا

هذه كانت لمحة سريعة عن ابن جبير ورحلته وما قاله المؤرخون عن هذا الكتاب مما يجعلنا تقديم ونشر هذا العمل الجليل ، والله ولي التوفيق ..